تحتَ مِنْبر

الإمام الجواد عليه السلام

٢

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٣ هـ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

سورة الرعد- الآية ٧

المقدمة

الحمد لله قديم الإحسان ذي الطول والامتنان، وأفضل الصلاة على سيد الأكوان محمد المصطفى وعلى آله الميامين الابرار.

وبعد..

إن ضمانة تنفيذ الأحكام الربانية وبالخصوص الأحكام التي تنظم الصفات والغرائز الإنسانية والعلاقات الاجتماعية لا تكون دون الاستناد إلى الإيمان بالله، وهذه الصفة تحتاج بعد التوفيق إلى معلم ومرشد يربيها ويرشدها، أما اختيار المعلم فلا بد أن يكون الأفضل، وهذه مسألة لا يمكن الجدال عليها، و نحن المسلمون - بحمد الله- منّ الله علينا بإرسال هداة لتكميل أنفسنا، وهؤلاء الهداة المبشرون المنذرون أوصوا إلى هداة بعدهم يمتلكون من الصفات ما جعلتهم أهلا لقيادة الناس وتعليمهم وإرشادهم نحو المكرمات، ومن هؤلاء الهداة إمامنا محمد بن علي الجواد عليه السلام حيث انبرى بالأمر الإلهي في قيادة الإمة وتوجيهها بعد آبائه عليهم السلام، وللموعظة والاسترشاد أخذنا بعضاً من كلماته وأوضحنا منها شيئاً وكانت هذه التجربة تحت عنوان «تحت منبر الجواد» القسم الأول، وهذا هو القسم الثاني منه، سنتحدث عن بعض القيم التي طرحها الإمام الجواد عليه السلام عسى أن تكون منهجاً لنا ولإخواننا.

الحديث الأول

أثر اتباع الهوى

قال عليه السلام: راكب الشهوات لاتستقال عثرته[1]

إن الله تعالى بحكمته البالغة ركب في طبيعة الإنسان قوة يميل بها إلى جلب المصالح والتحرز من المضار، غريزة ملزمة يميل بها إلى الطعام والشراب والنكاح، ويفر من الحر والبرد وكل مؤذ ومهلك، ويحب أولاده ويبني مسكنه وغير ذلك ويسمون هذه القوة بالقوة الواهمة التي لا يخلو عنها أي إنسان، وهي موجودة في باقي الحيوانات، ولكن لما كانت الحيوانات لم تخلق لكسب الفضائل ولم يركب ولا يوجد في طبائعها قوة مضادة للقوة الواهمة فهي مجبورة في اتباع غرائزها وهواها، ولا تؤاخذ عليها، وأما الإنسان صاحب النفس الناطقة العاقلة المستعدة لتحصيل الكمالات والفضائل لم يتركها الباري عزوجل والواهمة تميل بها إلى كل جانب وحيث تريد، بل جهزها وتفضل عليها بالعقل ثم شرّع لها التشريعات ليحصنها من الانجرار وراء هذه القوة الواهمة.

وبكلمة أخرى إن الذي يمنع من اتباع الهوى هو مقتضى

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر ص١٣٥

حكم العقل، فكثيراً ما تقع المعارضة بين القوة الواهمة والعقل فيستحسن كل منهما ما يستقبحه الآخر فإذا اتبع الإنسان هواه ولم يلاحظ العقل ويقرر على أساسه لم يعرف ما هو الصحيح، و شاهدة على ماذكرناه التجارب، فإن من يتوجه ذهنه إلى بعض حواسه يغفل عن الأخرى، كمن صرف ذهنه إلى استماع صوت لا يتبين له ما هو مشاهد وحاضر عند بصره، بل ربما يغمض عينه ليسمع أحسن، ومن يشتغل بعمل بيده وتكلم معه آخر ترك عمله لكي يتوجه بسمعه وبصره معاً أو بسمعه فقط حتى يفهم كلام المخاطب، ومع هذا التقريب نفهم العلاقة بين الواهمة والعاقلة، فكلما جعل الإنسان أحكامه على القوة الواهمة والتي تشده وتجبره على إشباع رغباته.. غفل عن الالتفات إلى أحكام العقل، فيكون العقل أسيراً للرغبات والشهوات، ولذلك فإن أشد ما يعرّض الإنسان للمهالك هو حبه لنفسه الذي يظهر من خلال حبه للجاه والرئاسة والتسلط، وكل ما يؤدي إلى نفع الذات، فإنه قد يبلغ بالإنسان مرحلة تجعله يعادي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما يرى أوامر النبي صلى الله عليه وآله على غير ما يهواه ذلك الإنسان، بل يعارض الأوامر الإلهية الصريحة المنصوص عليها إذا جاءت على غير ما يريد، ومع علمه بالتحذير المتكرر من الله سبحانه ووعيده على المخالفة يصر بغيّه ويوجه رغباته حيث يشتهي، فلقد حذر المولى جل وعلا في كتابه العزيز هذا الصنف مهدداً إياه بقوله:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١)

وهذا النص القرآني يظهر أمر الله جل وعلا بأن لا نحكم خلاف حكمه وطبقاً للأمزجة فتعدل بنا عن الحق الذي هو طريق الله، فالأمر ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ أي لا تميلْ إلى هوى نفسك، فإن الهوى يستزلك عن دين الله فتقضي بغير عدل وتعمل با لجور في القضاء، ومَنْ أعظم عذاباً ممن ترك العدل في القضاء، فالأمر في الآية يصرّح بأن ليس هناك حق للنفس بالحكومة في أمور الدين والدنيا، بل الوقوف عند ما حدّ الله من تشريع، وإن أقبح جنايات الفرد متابعة هوى نفسه الذي هو نوع من أنواع العبادة لها، وهو عبادة صنم الذات، بل إن عبادة الأصنام تنشأ من عبادة الذات، فليس عبثاً أن صرّح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأن الهوى صنم، فهو يقول: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع»(٢) فيكون الهوى أو اتباعه سببا لضلال الإنسان عن دلائل الله التي نصبها على الحق، تكويناً و تشريعاً، قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

(١) ص – ٢٦

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد /ج١ ص١٨٨

(٣) الجاثية - ٢٣

فهذا الختم على القلب الصادر من الله عز وجل يكون مانعاً وحائلاً عن التوفيق لفعل الصالحات، وعلى هذا يحرم على الإنسان أن يتبع هوى نفسه ورغباتها، إذا كان هواها ورغباتها مخالفة لما يريد الله، فإن الإنسان إذا ترك نفسه وما تهوى تمادت في الغي وأوصلته إلى ما لا يحمد عقباه، وعثرته لاتستقال كما أخبر الإمام ا لجواد عليه السلام، وجرأته على فعل المنكرات وترك الواجبات، وهنا نذكر شاهداً على ذلك؛ سأل رجل سفيان بن عيينة عن قول الله عز وجل: سأل سائل بعذاب واقع في مَن نزلت؟ فقال سفيان: لقد سألتني عن مسألة، ما سألني عنها أحد قبلك، حدثني جعفر بن محمد،عن آبائه عليهم السلام، قال: لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خم نادى الناس، فاجتمعوا، فأخذ بيد علي عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، فشاع ذلك، وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن نعمان الفهري، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقة له، حتى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته، فأناخها، وعقلها، ثم أتى النبي صلى الله عليه وآله وهو في ملإ من أصحابه، فقال: يا محمد، أمرتنا عن الله، أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلى خمساً، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصوم شهراً، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك، ففضلته علينا، فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، وهذا شيء منك أم من الله تعالى؟ فقال صلى الله عليه وآله: والذي لا إله إلا هو، إنه من

أمر الله، فولى الحارث بن نعمان، يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقوله محمد حقاً، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر، فسقط على هامته، وخرج من دبره فقتله، وأنزل الله تعالى «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ»[١]، وهذا من آثار اتباع الهوى وله آثار أخرى منها:

- اتباع الهوى منبع للكفر، قال تعالى:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[٢]

- اتباع الهوى سبب الغفلة، قال تعالى

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٣]

- اتباع الهوى يردي الإنسان إلى أسوء الضلال، قال تعالى

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[٤]

(١) عمدة صحاح الأخبار في إمام الأخيار /ص١٠١
(٢) طه-١٦
(٣) الكهف - ٢٨
(٤) القصص - ٥٠

- اتباع الهوى مانع للعدل والإنصاف، قال تعالى

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾[١]

- اتباع الهوى يفسد النظام التكويني والتشريعي، قال تعالى

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[٢]

- الهوى جندي وخادم مطيع للشيطان، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم عون الشيطان اتباع الهوى»[٣].

ولذلك يجب على كل مؤمن بالله ورسوله أن يغالب هوى نفسه ورغباتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يحكم العقل بكل ما يعرض عليه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا إن أخوف ما أخاف عليكم خصلتان، اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[٤] فإذا اجتمعت العلتان في المرء، فصده الهوى عن اتباع الحق ونسي الآخرة لطول أمله، لم يؤمل فيه خير ولم يرجَ له صلاح، وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[٥]

(١) النساء - ١٣٥
(٢) المؤمنون - ٧١
(٣) عيون الحكم والمواعظ/ ص٤٩٤
(٤) وسائل الشيعة ج٢ ص٤٣٨
(٥) وسائل الشيعة /ج١٦ ص٥٧

الحديث الثاني

ميزان الصحبة

قال الإمام القانع محمد بن علي الجواد عليه السلام: إياك ومصاحبة الشرير، فإنه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره[1].

إن الإنسان هو موجود مجبول على الحياة الاجتماعية يميل إلى الاجتماع بالآخرين، ويحب أن يعيش ضمن المجتمع، وعلى هذا فإنه يحتاج إلى معيار ليزن به خلته وصحبته لِيُكون مجتمعا صالحا -وإن كان صغيرا- لايلحقه فيه إثم في مصاحبته ومجالسته وفي هذا المجتمع يمكن أن يطور إمكاناته وملكاته، ومن هذه المعايير الحديث الذي وجهه الإمام الجواد عليه السلام لأتباعه للعمل به وهو الذي يحتاج إلى سياسة وفراسة ليعرف المؤمن من يستحق المصاحبة ممن لايستحقها، ومن لا سياسة عنده يقبل على مجالسة كل من رآه، ولكنه بعد حين يقطع مجالسته بسبب ما يصدر من سوء منه فيصير عدوا له، وقد نصح الحكماء حين قالوا: العاقل من يقدم التجريب قبل التقريب، إن اعتزال الإنسان عن الناس خير له مما يقع فيه من الإثم ويغنيه عن زيادة الأوزار التي يكتسبها من مجالسة

---

(١) جامع أحاديث الشيعة /ج١٤ ص٤٣٤

الناس، فإن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيف، فما الظن بالنفوس البشرية التي فيها قابلية شديدة لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟

فلا يكاد الإنسان يجد مجلسا من مجالس أهل السوء يخلو عن إثم أبدا، إما غيبة، وإما نميمة، وإما حديث يوجب الغفلة عن الله تعالى، وإما تحريض على طلب الدنيا بدون الالتفات إلى العاقبة الأخروية، وإما غير ذلك،وهذه الحالات كلها مرفوضة وممنوعة وقد نهى عنها الشارع المقدس وفضّل أن يبقى الإنسان وحيداً على هذه الاجتماعات فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الوحدة خير من قرين السوء»[1]، وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: أي صاحب شر؟ قال: «المزين لك معصية الله»[2] وعن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عن أبيه عن جده عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ومجالسة الأخيار تلحق الأشرار بالأخيار ومجالسة الفجار للأبرار تلحق الفجار بالأبرار فمن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خلطائه فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله وإن كانوا على غير دين الله فلا حظّ له في دين الله، إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

---

(١) مستدرك الوسائل /ج١٢ ص٣٢١

(٢) أمالي الصدوق /ص٤٧٨

فلا يؤاخين كافرا ولا يخالطن فاجرا ومن آخى كافرا أو خالط فاجـرا كان كافـرا فاجرا»[١] لذا فإن المجالسـة يجب أن تكون ذا منفعة وأن نبحث بجد وجهد عن الصالحين ونجالسـهم، وخير تلـك المجالس هـي مجالس العلماء الصالحين، فإن مجالسـة الصالحـين صـلاح كبـير، قـال الإمـام علـي بـن الحسـين عليه السلام: «مجالسـة الصالحـين داعية إلى الصـلاح، وآداب العلماء زيادة في العقـل»[٢] وفي هذا الـكلام توجيه وترغيب إلى المعاشـرة مع العلمـاء والمؤانسـة بهـم، والاسـتفادة مـن أهـل الفضيلـة فإن لم نجدهـم فالوحـدة خير لنـا فقد قيل:الوحـدة ولا الجليس السوء، وقيل: إن القرين بالقرين مقتدي، وقالوا: الجلوس مع الكلـب أولى من الجلـوس مع من يحملك على الآثام، واعلم يا أخي أن كل من تسبب لك بإثم في مجالسته فهو جليس سوء.

عـن أبي محمد العسـكري عليه السلام أنه قـال: «اللحاق بمن ترجو خير من المقام مع من لا تأمن شره»[٣].

وقـد أشـار الامـام أمير المؤمنـين علي عليه السلام الى هـذه الحقيقة بعبارة رشيقة إذ قال: «الشرير لا يظن بأحد خيراً، لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه»[٤].

(١) صفات الشيعة / ص٦

(٢) الكافي/ ج١ ص٢٠

(٣) - جامع أحاديث الشيعة ج ١٤ ص ٤٣٤

(٤) - عيون الحكم والمواعظ ص٥٧

الحديث الثالث

قضاء الله

قال الإمام محمد بن علي التقي عليه السلام:

إذا نزل القضاء ضاق الفضاء[١]

القضـاء والقـدر من المعاني التي فهمت عند أغلب المسـلمين فهمـاً معكوسـاً فأصبحت معـانٍ سـلبية أمام تحديـات الحياة وحركة التأريخ، ومتكئا للاستسـلام والضعف أمام الانحرافات الـتي أصابـت العقيدة الإسـلامية مـن قبل حكام الجـور، رغم أنهـا مـن الوضوح بمكان لو رجعت الأمـة إلى القرآن وعِدله آل البيـت النبوي، فلقد حمل البعـض لفظ القضاء في خصوص معنـى واحـد وهـو الإيجاد كي يثبـت عقيدة الجـبر، وقد ذهب هـؤلاء – وهـم الذين يطلق عليهم المجـبرة – إلى أنه تعالى هو الفاعـل لأفعـال المخلوقـين فيكون قـد أجبر النـاس على فعل المعاصـي، وهـو مـع ذلـك يعذبهم عليهـا، وأجبرهـم على فعل الطاعـات ومع ذلك يثيبهـم عليها، لأنهم يقولـون إن أفعالهم في الحقيقة أفعاله وإنما تنسب إلى الناس مجازاً لأنهم محلها كمـا لو قـال القائل جرى الميـزاب ولكن الذي يجـري واقعاً هو

(١) - الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة ص٩

الماء، فهم ينكرون السببية الطبيعية بين الأشياء ويعتقدون بأنه تعالى هو السبب الحقيقي لا سبب سواه، فالنار لا تحرق وإنما الله يخلق الإحراق بعد النار، والثلج لا يبرّد ولكن الله يخلق البرودة بعد الثلج، وعلى هذا قِس باقي الأشياء، وظنوا أن ذلك هو مقتضى كونه تعالى هو الخالق الذي لا شريك له، فهذه الفرقة ترى أن ما يصدر عن الإنسان من الأفعال صادر عن الله تعالى في الحقيقة ومخلوق له، وليس الإنسان إلا ظرفاً لهذه الأفعال ولا شأن له بها غير ذلك، وإنما كانوا يصرّون على ذلك كما ذكرنا للاحتفاظ بأصل التوحيد ونفي وجود مصادر متعددة في الكون للأشياء وللأفعال، وهذه المدرسة لا تنفي «أصل العلّية» رأساً، ولكنها لا تعرف للكون غير علة واحدة وهو الله تعالى، وتنسب كل شيء وكل فعل إلى الله تعالى مباشرة، وفي الحقيقة أن من يقول بهذا القول والذاهب إلى هذا الرأي فقد نسب الظلم إلى البارئ عز وجل تعالى عن ذلك علواً كبيراً، والصحيح أن أفعال العباد غير مخلوقة لله، وقد روي عن أبي الحسن الثالث الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام أنه سئل عن أفعال العباد أهي مخلوقة لله تعالى؟ فقال عليه السلام: «لو كان خالقا لها لما تبرأ منها وقد قال سبحانه:

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾

ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم، وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم»[1]، وكتاب الله تعالى المقدم على الأحاديث والروايات، وإليه يتقاضى في صحيح الأخبار وسقيمها، فما قضى به فهو الحق دون ما سواه، قال الله تعالى:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾

فأخبر بأن كل شيء خلقه فهو حسن غير قبيح، فلو كانت القبائح من خلقه لما حكم بحسن جميع ما خلق، نعوذ بالله من هذا القول، وقال تعالى:

﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾

فنفى التفاوت عن خلقه، وقد ثبت أن الكفر والكذب متفاوت في نفسه، والمتضاد من الكلام متفاوت فكيف يجوز أن يطلقوا على الله تعالى أنه خالق لأفعال العباد وفي أفعال العباد من التفاوت ما ذكرنا، وأيضاً سأل أبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام حين كان الإمام الكاظم عليه السلام صغيراً، عن أفعال العباد ممن هي؟ فقال عليه السلام: «يا شيخ لا تخلو من ثلاث إما أن تكون من الله وليس من العبد شيء فليس للحكيم أن يأخذ عبده بما لم يفعله، وإما أن تكون من العبد ومن الله والله أقوى الشريكين فليس للشريك الأكبر أن يأخذ الشريك الأصغر بذنبه، وإما أن تكون من العبد وليس من الله شيء فإن شاء عفى وإن شاء عاقب»[2].

(١) البحار / ج٥ ص٢٠

(٢) البحار/ج٥ص٢٧

إن هـؤلاء تجاهلوا أن لفظ القضاء من المشـتركات اللفظية، وقـد جـاء بمعـانٍ مختلفـة في القـرآن الكريـم على مـا حكاه علماؤنا الأعلام نذكر منها:

١- العلم وهو قول الله عز وجل:

﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ يعني علمها.

٢- الإعلام وهو قوله عز وجل:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أي أعلمناه.

٣- الحكم وهو قوله عز وجل.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يحكم بالحق.

٤- القول وهو قوله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يقول الحق.

٥- الحتم وهو قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ يعني حتمنا، فهو القضاء الحتم.

٦- الأمر وهو قوله عز وجل:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ يعني أمر ربك.

٧- الخلق وهو قوله عز وجل:

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني خلقهن.

٨- الفعل وهو قوله عز وجل:

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي افعل ما أنت فاعل.

٩- الاتمام وهو قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ وقوله عز وجل حكاية عن موسى ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي أتممت.

١٠- الفراغ من الشيء وهو قوله عز وجل:

﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يعني فرغ لكما منه، وقوله القائل: قد قضيت لك حاجتك، يعني فرغت لك منها[1].

ومـع هـذا الكم من المعانـي لا يحـق للمجبرة حصـر معنى القضـاء بالإيجاد فقط، ويتوجب الرجوع إلى عِدل القرآن أهل البيت عليهم السلام ليستبين المراد من القضاء.

روى البرقي في محاسـنه عن أبيه عن يونس عن أبي الحسـن الرضا عليه السلام قال: قلت: ما معنى قدر؟ قال: «تقدير الشـيء من

(١) التوحيد/ ص٣٨٥-٣٨٦

طوله وعرضه»، قلت: فما معنى قضى؟ قال: «إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مردّ له».

وروى البرقي في محاسنه أيضا بإسناده عن محمد بن إسحاق قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام ليونس مولى علي بن يقطين: «أو تدري ما قدر؟» قال: لا، قال: «هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء».. ثم قال: «إن الله إذا شاء شيئا أراده، وإذا أراده قدره، وإذا قدره قضاه، وإذا قضاه أمضاه»، ونحن إذا نظرنا إلى هذين الحديثين الشريفين علمنا أن القدر مقدار الشيء الذي لا يتعدى والحد الذي لا يتجاوزه من جانبي الزيادة والنقصان فالإنسان قبل وجوده معلوماً عند الله بخصوصياته الجسمية والروحية وكيف يوجد وكيف يموت وقواه كلها معلومة عند الله ثم إذا وجد كيف تكون خصوصياته وهذا ما يمكن فهمه من حديث الإمام الرضا عليه السلام من خلال قوله في الحديث الأول «تقدير الشيء من طوله وعرضه» ومن خلال قوله في الحديث الثاني «هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء» وأما القضاء هو عبارة عن وصول الشيء حسب اجتماع أجزاء علته إلى حد يكون وجوده ضرورياً وعدمه ممتنعاً وهذا ما ظهر من المعنى في الحديث الأول «إذا قضى الله فذلك الذي لا مردّ له» وفي الحديث الثاني «وإذا قضاه أمضاه» وعلى هذا فإن جميع الأشياء محكومة بقوانين ولكن هذه القوانين لا

تعني سلب قدرة الإنسان على الاختيار فله إمكانية اختيار أي طريق شاء وهذا المعنى ظاهر فيما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما اختار طريق دون آخر فلقد روى الصدوق في التوحيد بإسناده عن الأصبغ بن نباتة أن أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين! تفر من قضاء الله؟ قال: «أفر من قضاء الله إلى قدر الله» فإن الفرار أيضا من تقديره تعالى، فلا ينافي كون الاشياء بقضاء الله الفرار من البلايا والسعي في تحصيل ما يجب السعي فيه، فإن كل ذلك داخل في علمه وقضائه، ولا ينافي شئ من ذلك اختيار العبد كما مر، وهذا المعنى الذي ذكره الإمام الجواد عليه السلام يتناول القضاء الذي يتم بكل شروطه فلا مفر منه ولامهرب.

الحديث الرابع

المبدئية

قال تاسع الأئمة محمد بن علي الرضي عليه السلام: لا يضرك سخط من رِضاه الجور[١]

لا يختلف أصحاب العقول والأفهام على أن للدين طريقة ورؤية خاصة للحياة تؤمن لها الصلاح بما يوافق الكمال الأخروي، ويعتمد طريقة اجتماعية تلازم الفطرة يبني من خلالها الإنسان بناءً محكماً لأن هدفه بناء المجتمع الصالح من خلال الإنسان الصالح حتى يصل إلى رتبة

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[٢]

فمنذ فجر التأريخ وعند هبوط أول البشر إلى الارض أوحي إليه

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣]

(١) -أعلام الدين في صفات المؤمنين/ ص٣٠٩

(٢) - طه/١٢٣

(٣) - البقرة/٣٨

و﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[١]

فنتيجة الهدي الإلهي هو حصول الإنسان على حياة لا خوف فيها على ما بين يديه أو ما عنده ولا حزن على ما مضى ولا ضلال ولا شقاء، وفي دستور الرسالة الخاتمة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٢]

قد جعل المولى سبحانه كل الرسالة دعوة إلى الحياة الأفضل والأكمل، فالاسلام يهدف إلى إثبات صيغة لم تستطع الحضارات السابقة إيجادها ولا الأنظمة التي وجدت بعد الإسلام إلى يومنا الحاضر، فهو يريد إنساناً يتعامل على أساس الحق والفضيلة ولا يلتمس غيرها شيئا، وهيأ الأجواء من خلال رسوله الأكرم لإنشاء روابط الأخوة الدينية وبخفض الجناح للإخوان وأوجب التضامن بين المؤمنين بقطع النظر عن وشائج الرحم والقربى العائلية وقنن لهم القوانين للنهوض بدورهم العالمي الذي قدره الله لهم وهو دور ضخم

(١) - طه/١٢٣

(٢) - الأنفال/٢٤

يبدأ من إنشاء مجتمع جديد كامل شامل لهذه الحياة، وإقامة حياة سليمة على أساس دستوره العظيم، يتحمل أعباء هذا الدستور ونشره ا لجماعة المؤمنة لتنشره للبشرية جمعاء، لتعم حياة إنسانية قائمة على أساس الدستور الإلهي، وهو دور ضخم يقتضي إعدادا كاملا، وأعد للفرد المؤمن قائمة من الصفات المعنوية التي يجب أن تبتنى عليه شخصيته والتي منها بعد حب الله والأنس به حب المؤمنين وبغض المنحرفين سواء كانوا كافرين أو مشركين أو منافقين أو ظالمين، وذلك لأن المنافقين مخادعون فلا يمكن ائتمانهم وهم متلونون لا تجد لهم سبيل لبناء شخصيتهم فإن روح النفاق تتماشى وتتحرك مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق فيأخذ من كل لون صبغته فيفقد أصالته واستقلاله الفكري.

وأما الكفار فإن تعصبهم لايسمح لهم بتغيير طريقتهم، ومنهم من يؤمن ابتداءً ويذوق حلاوة الإيمان وتتجلى عنده الأدلة بأحقية الدين لكنه ينكص بعد مدة بسبب تعصبه لطريقته الأولى وما خلّفته في آبائه وأسلافه وورثه عنهم، فهؤلاء يكون التأثير فيهم مستحيلاً لأنهم أدمنوا على قناعتهم ووصلت هذه الصفات إلى حد تكون فيه ملكة فلا يرجى لها تغيير وتبديل، يقول السيد الطباطبائي: إن الإنسان يجري في أعماله وأفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال

أو الملكات النفسانية والصور التي زينتها ونمقتها له نفسه دون الذي حصل له العلم به كما أن المعتاد باستعمال المضرات كالبنج والدخان وأكل التراب ونحوها يستعملها وهو يعلم أنها مضرة وأن استعمال المضر مما لا ينبغي إلا أن الهيئة الحاصلة في نفسه ملذة له جاذبة إياه إلى الاستعمال لا تدع له مجالا للتفكر والاجتناب ونظائر ذلك كثيرة[1]، فهم لاستحكام الكفر والنفاق وحب الشهوات في أنفسهم يجرون على طبق ما تدعوهم إليه فلا يرجى الخير فيهم فينبغي محادتهم.

إن النظام الإسلامي نظام مختلف عن باقي الأنظمة، فهو يلاحظ الإنسان على أنه القيمة العليا في الموجودات، فهو منظومة حقوقية كاملة تنظم الحياتين وترشد حركة وسلوك الأفراد والأسر وا لمجتمعات والبلدان، ويُمنهج الإسلام على أساس أن الكون مسخر للعالم الإنساني، وهو أنموذج خالي ومنزه عن الأخطاء وقوانينه سلسة سهلة يستسيغها الفكر، بخلاف الأنظمة الأخرى التي تعتمد على نظرة محدودة إفرادية جزئية سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية لا تمتد ومراحل وجود الإنسان فهم يحقرون دور الإنسان ووضعه الطبيعي فيجعلونه تابعاً مع إنه السيد الكريم قال تبارك وتعالى:

---

(١) - تفسير الميزان/ج٣ ص١٢٥

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (١)

فكل هدف ينطوي على تحقير وتصغير قيمة الإنسان مهما حقق من مزايا ومكتسبات مادية فهو هدف مخالف لغاية خلق الإنسان ووجوده، وعلى هذا فكل مَن أسس خلاف ذلك فقد خالف التكريم الإلهي سيكون ظالماً كما نص عليه القرآن في قوله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢)

فلابد أن تكون المواجهة للمعتقد المعتنق للعقيدة مع الظالمين على مدار الأيام والسنين والأحقاب، وقد عرض لنا القرآن الكريم مثالاً قيماً وشاهداً رفيعاً لثبات الإيمان والعقيدة والمبدئية حيث ذكر تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)

(١) - الإسراء/٧٠

(٢) - المائدة/ ٤٥

(٣) - التحريم /١١

في قصة آسيا بنت مزاحم حين وقفت أمام أعظم جبابرة الأرض فرعون وهو في أوج اقتداره وغطرسته فقد أوجد مجتمعا يسوده السكوت والتكتم عن الحقائق الواضحة وكان يحكم أناسا لبسوا الذل ثوباً، ولكن هذه المرأة العظيمة لم تغير قناعاتها رغم علمها بما ستواجهه من فرعون وإن ظلم فرعون وغطرسته وإمكانيته العسكرية والمادية أضعف من أن ينال من عقيدتها، واستمرت محافظة على إيمانها، وبإرادة كان مثالاً عجيباً من حيث الإصرار، فهي التي لم ترافق وتوافق على الكفر والأخطاء السارية في المجتمع ولم تحيد عن منهجها الحق تحت تبريرات العرف والضغط الاجتماعي، ومثال آخر يعرضه القرآن لمن رآى الحق وتبعه رغم ما واجهه:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ - قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ - قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا - إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١)

(١) - طه /٧٠-٧٣

وفي التأريخ الإسلامي شواهد كثيرة نأخذ منه، عبدالله بن عفيف الأزدي كان من كبار شخصيات الشيعة البارزين في الكوفة، وكان ضريراً ذا وعيٍ وبصيرة وشجاعة، فقد إحدى عينيه في معركة الجمل والأُخرى في معركة صفين، بعد استشهاد الحسين ارتقى ابن زياد المنبر في الكوفة خطيباً وأخذ يسيء القول لآل الرسول صلى الله عليه وآله ولسيد الشهداء عليه السلام، فقام إليه عبدالله بن عفيف بكل شجاعة وأنكر عليه قوله ورد عليه بجرأة، فأمر ابن زياد بالقبض عليه لكن قومه أخرجوه من المجلس، فحاصر جلاوزة ابن زياد داره لاعتقاله وتصدّى لهم بسيفه، رغم أنه كان ضريراً، وأخذ يقاتلهم بإرشاد من ابنته، كان اعتراضه على ابن زياد في مجلسه مواجهة علنية لوالي الكوفة وحكومة يزيد، وغدت شجاعته وإقدامه في الدفاع عن الحُرمات والمقدسات نموذجاً يقتدى به في مواجهة الجبابرة.

روى العياشي في تفسيره عن محمد بن منصور قال: سألت عبدا صالحا [أي الإمام الكاظم عليه السلام] عن قول الله:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

قال: «إن للقرآن ظهرا و بطنا فأما ما حرم به في الكتاب هو في الظاهر، و الباطن من ذلك أئمة الجور، و جميع ما أحل في الكتاب هو في الظاهر و الباطن من ذلك أئمة الحق».[1]

(١) - تفسير العياشي/ ج٢ ص١٦

الحديث الخامس

أمين الخونة

قال جواد الأئمة عليه السلام:

وكفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة.[1]

الهدف من إنزال الكتب السماوية هو تحقيق مبادئ الحق والعدالة والأمانة بين الناس، والمنع من الظلم والتعدي والخيانة وغيرها من الصفات الهابطة المذمومة و التأكيد على رفض كل القيم المنحرفة، وتتحرك عقيدة رفضه في الفكر والشعور والعمل، فلا يسمح بإن يعيش الإنسان فكر الخيانة كطريقة يخطط بها الخطط ويجني المكاسب من خلالها، ولا يرضى له بأن يتعاطف مع الخائنين بالشعور والكلمة والموقف، لأن المؤمن لا يجتمع في قلبه حب الأمانة و الدفاع عن الخائنين، فكيف يمكن للفرد المسلم أن يحب من لا يحبه اللهّ؟ مع أن علامة إيمان المؤمن هي أن يحب من يحبه اللهّ، و يبغض من يبغضه اللهّ بحيث يكون مدار شعوره السلبي والإيجابي – البغض والحب - تابعاً لإيمانه وما يقتضيه هذا الإيمان في ما يوحيه، فالمؤمن عندما يصدّق ويعترف بحق الله عليه، فإنه

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر/ ص١٣٧

ينعتق من عبودية الذات وينطلق إلى أفق العدالة، وغير المؤمن بخلاف ذلك، لأن حق الله عليه معناه الإيمان به وبكلماته، ومن كلماته إيجاب حقوق العباد تجاهه، فالإيمان بالله ليس مجرد كلمة يتمشدق بها العبد أو علاقة على أساس النفع العاجل بين المرء وخالقه، إنما هي علاقة بينه وبين الحق؛ أي الحق الذي يجب أن يحُترم ويُعترف به ويؤدى بالقدر الموصوف المشرّع.

وعلى هذا فلا بد من مواجهة الخونة بالموقف السلبي الحاسم المانع الذي يعد امتثالاً لأمره تعالى،إذ يقول الحق جل وعلا:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١)

نهي عن أن يُدافع عن مسلم أو معاهد خان حقاً من حقوق الناس، فالإسلام لا يبيح المحاماة إذا انطلقت في خط الدفاع عن المجرمين ويرفضها رفضاً شديداً وكلما كان ذنب الخائن أشد كان ذنب الدفاع عنه أشد.

نعم أكد القرآن على خط المواجهة في عدة أساليب، فبدأ

(١) – النساء /١٠٥-١٠٦-١٠٧

بالنهي عن أن يكون المؤمن خصيماً، أي مدافعاً عن الخائنين كما في الآية السابقة، فعدم قبول مجادلة الفرد المسلم عن هؤلاء، بسبب أنها تكون نوعا من أنواع مساعدة الإنسان على خيانة نفسه بالتمرّد على إرادة الله، في الوقت الذي يريد الله للمؤمن أن يساعد العصاة على أنفسهم بهدايتهم إلى سبيل الله في السير على هدى أمره و نهيه، ولم يُجوّز للمؤمن أن يدافع عنها بالدفاع عن رموز الخيانة، وإلا كان ذلك انحرافاً من المسلم عن الوقوف عند الحق، واعتبر الخائنين خائنين لأنفسهم كما هم خائنون للناس من حولهم، لأنهم أوقعوا أنفسهم في الهلكة بما مارسوا من الأعمال التي عرضتهم لسخط الله.

هذه مجموعة أسباب أوجبت المنع - سواء كان على مستوى التحريم أو الكراهة - من الدفاع عن الخائنين والوقوف إلى جانبهم فضلاً عن أسباب آخرى منها الحاجة إلى تطبيق روح العدالة الاجتماعية والذي ينتج سعادة المجتمع، وسعادة المجتمع تتأسس من سعادة الفرد وهذا المعنى الثمين أساسه ومبدأه هي الأمانة وبذل النصح والدفاع عن القيم الواقعية، وكون الإنسان مستأمناً للخائنين كيفما كانوا.. هي الخيانة الواضحة، ومن الواضح أن الخيانة تضاد روح العدالة الاجتماعية، وتبخس حقوق الأفراد، فيتسبب بإيجاد خلل في النظام العام، وعليه فإن وظيفة كل فرد احترام حياة وحرية

وشـرف أبنـاء نوعـه، ومراعاة التكاليـف والوظائـف فيؤدي ما عليه من حق لله أو للمجتمع بروح جادة وصادقة، وهذه الأمانة المذكورة هي التي أسـس لها الشارع المقدس ودعى إلى الاجتناب عـن الخيانـة في كثـير مـن النصـوص القرآنية الشـريفة فمن ذلـك قوله تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

و قوله جل وعلا: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ (٢)

وقولـه تبـارك اسمـه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٣)

و عن علي بن موسـى الرضا عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسـول الله صلى الله عليه وآله: من كان مسـلما فلا يمكر ولا يخدع، فإني سمعت جبرئيل يقول: إن المكر والخديعة في النار، ثم قال: ليس منا من غش مسلما، وليس منا من خان مسلما»، ثم قال صلى الله عليه وآله: «إن جبرئيـل الـروح الأمين نزل علي مـن عند رب العالمين فقـال: يا محمد عليك بحسـن الخلـق، فإن سـوء الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة، ألا وإن أشبهكم بي أحسنكم خلقا»(٤).

---

(١) -الأنفال /٢٧

(٢) -الأنفال /٢٧

(٣) -النساء/ ٥٨

(٤) -وسائل الشيعة/١٢ ص٢٤١

الحديث السادس

كفالة الأيتام

قـال محمد بن علي ا لجـواد عليه السلام: من تكفل بأيتـام آل محمـد المنقطعـين عـن إمامهـم المتحيريـن في جهلهـم، الأسـراء في أيـدي شـياطينهم وفي أيـدي النواصب مـن أعدائنا فاسـتنقذهم منهـم وأخرجهـم مـن حيرتهم وقهر الشياطين برد وساوسهم، وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليفضلون عند الله تعـالى علـى العبـاد بأفضل المواقـع بأكثر من فضل السـماء على الأرض والعرش والكرسي والحجـب علـى السـماء وفضلهـم علـى هذا العابـد كفضـل القمر ليلة البـدر على أخفى كوكب في السماء.(١)

إن مـن أهـم المسـؤوليات الـتي خـص الله تعالى بهـا العلماء الربانيـين هـي الدفـاع عـن حريـم الديـن والـذب عـن الرؤية الدينيـة المتمثلـة في القرآن العظيـم وكلمات الرسـول الكريم صلى الله عليه وآله وأئمـة الديـن الاثـني عشـر عليهم السلام، والرد على أهل الشـبهات

---

(١) - موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام - الشيخ هادي النجفي - ج ٩ - ص ٢١٤

و أصحاب البدع في الدين وهي ما يمكن أن تسمى المهمة الدفاعية، وهذه إحدى المسؤوليات التي يضطلع بها العلماء، فهم المدافعون عن حوزة الدين والعارضون أنفسهم على نبال أعداء الدين الرامين الحق بكل سهم خبيث والناصبين الشراك للمستضعفين، ومسؤولية أخرى هي في جهة التبليغ والبيان، فيتصدى العلماء لعرض الموروث الإسلامي وشرح معارفه وعرض أطروحته والتأكيد على أصالتها و أحقيتها ومطابقتها للواقع وعلو شأنها أمام الأديان الأخرى سواء ما نُسب إلى السماء أم غيرها أو الأفكار والأطاريح الوضعية بمذاهبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية و حتى المذاهب التربوية والنفسية المنبثقة عن المذاهب الإجتماعية.

فالعلماء يحملون هذا العبء الكبير لأنهم استعدوا استعداداً نفسياً عالياً وصرفوا أعمارهم ونصبوا أعينهم لهذا الواجب المقدس، فمَنّ الله جل وعلا بكرمه وفضله فجعلهم ورثة الأنبياء في هذا الأمر فكانوا الحاجز المانع لأعداء الإسلام يمنعونهم من فرصة القضاء على كيان الدين أو تشويه جذوره وأصوله، وهم النور والمصابيح في الظلمات الذي يستضيء به المسلمون ويفر منه خفافيش الظلمة ولهم المنزلة الرفيعة.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «العالم كمن معه شمعة تضيء للناس فكل من أبصر بشمعته دعا له بخير، كذلك العالم معه شمعة

يزيل بها ظلمة الجهل والحيرة، فكل من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل فهو من عتقائه من النار»[١]، وبهم ينفى عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وبما أن الأمر الذي يدافعون عنه يرجع إلى أهم ما يتصور العقل من الأمور وهو سعادة الدنيا والآخرة وهو الغاية للخلق، فلا يقاس جهادهم بجهاد المرابطين على الحدود والثغور لأن هذا الدفاع دفاع عن الأموال والأنفس وهو دفاع عن دنيا المسلمين، أما دفاع العلماء فهو دفاع عن دنيا المسلمين وآخرتهم، قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته وشيعته النواصب، يمنعونهم من الخروج والتسلط على ضعفاء شيعتنا، ألا ومن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف ألف مرة، لأنه يدفع عن أديان محبينا، وذلك عن أبدانهم»[٢]، ولرفعة هذه المنزلة أشار الإمام الكاظم عليه السلام: «فقيه واحد ينقذ يتيما من أيتامنا المنقطعين عنا وعن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه، أشد على إبليس من ألف عابد،لان العابد همه ذات نفسه فقط، وهذا همه مع ذات نفسه ذات عباد الله وإمائه لينقذهم من يد إبليس ومردته، ولذلك هو أفضل عند الله من ألف ألف عابد»[٣]، فهم بمنزلة لايقاس بها العابدون، وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلوم من طب البدن والنفس والكيمياء

(١) - الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي ج ١ ص ٦٠٢

(٢) - الإحتجاج للطبرسي ج١ ص٨

(٣)- تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام ص ٣٤٣

والفيزياء والعلوم الإنسانية كلها مطلوبة في نفسها أو لما لها من آثار في صيانة أحوال الناس ولكنها أيضاً لا تقاس بالعلوم الدينية لأن فوائد هذه العلوم تنتهي بنهاية الوجود الإنساني في الدنيا أما العلوم الدينية فهي لسعادة النشأتين الدنيا والآخرة.

منزلة العلماء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام:

بعد هذا البيان نسترشد بكلمات أهل البيت عليهم السلام لمعرفة مكانة العلماء وآثارهم ومنزلتهم الأخروية..

عن الرضا عليه السلام: «يقال للعابد يوم القيامة: نعم الرجل كنت، همتك ذات نفسك وكفيت الناس مؤنتك فادخل الجنة ويقال للفقيه: أيها الكافل لأيتام آل محمد، الهادي لضعفاء محبيهم: قف حتى تشفع في كل من تعلم منك أو تعلم ممن تعلم منك إلى يوم القيامة، فيدخل الجنة ومعه فئاما وفئاما حتى عد عشرا فانظركم حرف ما بين المنزلتين»[1].

وعن الإمام الهادي عليه السلام: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم من العلماء الدالين عليه، و الداعين إليه، والذابين عن دينه بحجج الله، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شياطين إبليس ومردته؟ ومن محاج لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله، ولكنهم

(١) - الصراط المستقيم لعلي بن يونس العاملي ج٣ ص٥٦

الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة، كما يمسك صاحب السفينة سكانها أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل»[1].

وعنه عليه السلام: «شيعتنا القائمون بضعفاء محبينا يوم القيامة، والأنوار تسطع من تيجانهم، قد انبثت في عرصات القيامة ودورها ثلاثمائة ألف سنة، فلا يبقى يتيم قد كفلوه، ومن ظلمة الجهل أخرجوه، إلا تعلق بشعبة من أنوارهم حتى ينزلون في جوار استاديهم وأئمتهم، ولا يصيب النور ناصبيا إلا عميت عيناه من ذلك النور وصمت أذناه، وخرس لسانه، ويتحول عليه أشد من لهب النار، حتى تدعهم الزبانية إلى سواء الجحيم»[2].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من قوى مسكينا في دينه، ضعيفا في معرفته، على ناصب مخالف فأفحم لقنه الله يوم يدلى في قبره أن يقول: الله ربي، ومحمد نبيي، وعلي وليي، والكعبة قبلتي، والقرآن عدتي، والمؤمنون إخواني فيقول الله أدليت بالحجة، فوجبت لك عالي درجات الجنة، فعند ذلك يتحول عليه قبره أنزه رياض الجنة»[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من كان همه في كسر النواصب عن موالينا، وكشف مخازيهم، جعل الله همة أملاك الجنان

(١) - المصدر نفسه.
(٢) - المصدر نفسه
(٣) - بحار الأنوار ج ٢ص٧

في بناء قصوره ودوره، يشغل بكل حرف من حروف حجته أكثر من عدد أهل الدنيا، قدرة كل واحد يفضل عن حمل السماوات والأرضين، فكم من نعمة وكم من قصور لا يعرف قدرها إلا رب العالمين»[١].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «أفضل ما يقدمه العالم من محبينا وموالينا أمامه ليوم فقره وفاقته وذله ومسكنته أن يغيث في الدنيا مسكينا من محبينا في يد ناصب عدو لله ولرسوله يوم يقوم من قبره من شفير قبره إلى موضع محله من جنان الله فيحملونه على أجنحتهم ويقولون: طوباك، طوباك يا دافع الكلاب عن الأبرار، ويا أيها المتعصب للأئمة الأطهار»[٢].

هذه الأحاديث قبس مما قالوه في حق العلماء ومكانتهم في الدفاع عن الدين وإنقاذ الناس من الضلالة، ويمكن للعقل أن يستدل على هذه المكانة العظيمة للعلماء بلحاظ ما يحملوه، وذلك لأن المعاني الموجودة في الذهن إذا عرضناها على الخارج فإما أن تكون موجودة أو لا، والقسم الموجود أما أن تكون الجنس النامِ أو من الجنس الجمادي، والجنس النامِ خير من الجماد، والجنس النامِ ينقسم إلى متحرك بالإرادة و غير متحرك بالإرادة، والمتحرك بالإرادة أفضل من الآخر، وهذا

(١) - الصراط المستقيم ج٣ ص٥٨

(٢) - الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي ج ١ ص ٦٠٥

القسم ينقسم إلى عاقل وغير عاقل، ويقيناً أن العاقل خير من غيره والعاقل أما عالم أو جاهل والعالم بلا ريب خير من الجاهل، وعليه فإن العقل يحكم بهذه المنزلة إليه، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الجواد عليه السلام: خير من الخير فاعله، وأجمل من الجميل قائله، وأرجح من العلم حامله.[١]

فإذا كانت هذه منزلة العلم و العالم فإن لمجالستهم آثار، نذكر منها:

١. في ترك مجالستهم الذل والهوان عند الله، قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء له: «ولعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني»[٢].

٢. إحياء العقل والقلب، قال لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله عز وجل يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء»[٣].

٣. سعادة الإنسان في مجالسة العلماء، قال أمير المؤمنين

(١) - بحار الأنوار ج٧٥ ص٣٧٠

(٢) - إقبال الأعمال ج١ ص١٦٨

(٣) - الدر المنثور ج٥ ص١٦٥

علي بن أبي طالب عليه السلام: «جالس العلماء تسعد»[1].

٤. في مجالستهم زيادة العلم وإكمال الأدب وتزكية النفس قال أمير المؤمنين عليه السلام: «جالس العلماء يزدد علمك ويحسن أدبك وتزك نفسك»[2].

٥. تذاكر العلم في مجالسهم خير من عبادة سنة، عن أبي ذر قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم، أحب إلى الله من قيام ألف ليلة، يصلى في كل ليلة ألف ركعة، والجلوس ساعة عند مذاكرة العلم، أحب إلى الله من ألف غزوة، وقراءة القرن كله، قال يا رسول الله: مذاكرة العلم [ساعة] خير من قراءة القرآن كله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله الله عليه وآله: يا باذر الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم، أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن كله، اثناعشر ألف مرة، عليكم بمذاكرة العلم فإن بالعلم تعرفون الحلال من الحرام، يا باذر الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم خير لك من عبادة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها»[3].

٦. في مجالس العلم يجمع الإنسان خير الدنيا والآخرة،

(١) - عيون الحكم والمواعظ ٢٢١

(٢) - المصدر نفسه ص٢٢٣

(٣) - مستدرك الوسائل ج ٥ ص ٣٩٦

روي عن بعض الصحابة، قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إذا حضرت جنازة ومجلس عالم أيهما أحب إليك أن أشهد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فإن حضور مجلس عالم أفضل من حضور ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض، ومن قيام ألف ليلة، ومن صيام ألف يوم، ومن ألف درهم يتصدق بها على المساكين، ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجب تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك وأين تقع هذه المشاهد من مشهد عالم؟ أما علمت أن الله يطاع بالعلم ويعبد بالعلم؟ وخير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»[1].

(١) - بحار الأنوار ج١ ص٢٠٤

الحديث السابع

تزيين القبيح

قال الإمام الجواد عليه السلام: من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه[1].

إن تغيير النعم الإلهية لا يأتي مفاجئاً وبلا أي مقدمات، وإنما يأتي مطرداً على مستوى التغيير من الإمة، فإن لكل تغيير وتبديل للأوامر والنواهي أو الإعراض عن الإلتزام بها تكون هنالك زوال نعمة موفورة، إلى أن يفقدوا كل النعم الموهوبة المعطاة للمجتمع المؤمن فتسلب على أثر هذا التغيير العزة والكرامة والاستقلال وهذا المعنى غير خاف على من تتبع النصوص القرآنية الشريفة حيث صرح كتاب الله العزيز ويصرح على نحو الاستمرار بـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]

فثبوت نِعم الله سبحانه وتعالى تكون بالارتباط به وترك كل أوامر لغيره ولا يخفى المقصود أن أوامره هي النصوص القرآنية و قول المبلغ عنه وهو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن ثبت

(١) - كشف الغمة في معرفة الأئمة ج ٣ص ١٣٩

(٢) - الأنفال ٥٣

له الاستخلاف الواقعي وهم الائمة الاثنا عشر من أهل البيت عليهم السلام فإن طاعتهم في طول طاعة الله سبحانه، وأما الأخذ من غير هذا الحق فهو التبديل والتغيير، وينتج لهذا الفعل القبيح صدوره اتباع للظالمين سواء أكان الظالمون كفاراً كتابيين أو غير كتابيين فيتلبس بأوصافهم فيكون منهم حسب التعبير القرآني:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]،

أو كانوا من نفس المجتمع الإسلامي لكنهم تسلموا مقاليد السلطة بعد تزييفٍ ومداهنة و مراوغة، ومن عظم خطر الظلم وسوء عاقبته نهى الله جل وعلا عنه، وهذه المنهجية التي أمر الله بها وحث على تركها والابتعاد عنها ظهرت من خلال النصوص القرآنية الشريفة وسنة المبلغين المعصومين قولاً وفعلاً فقد ذكر القرآن الظلم والظالمين بآيات تجاوزت العشرات بل المئات، ومن هذه العين الصافية أرتوى النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وسقوا عطاشى الناس كي ينهلوا من أصل به تستقيم أمور المجتمع الإسلامي، بل لا يستقيم حال أي مجتمع بدون رفض عنوان الظلم على المستوى الفكري ومجابهة الظالمين على المستوى

(١) - المائدة ٥١

العملي، فالاستناد إلى الظالمين وقبول أقوالهم له الأثر الواضح على مستوى الفرد والمجتمع، أما على مستوى الفرد فإنه يؤدي إلى فقدان استقلاله الذاتي والفكري وتحجيم آرائه ومبتنياته وقد يؤدي به الظلم إلى نفي كل واقعية للمبادىء السامية فيصل به الاعتقاد إلى تأطير وتقنين كل الأشياء للنفع الذاتي فيبرر أفعاله وفق ما ينتج له من نتائج، مثل ما وصل إليه الحال في بعض المدارس الفلسفية في أوربا وغيرها حيث ذهبت إلى أن الحقيقة هي النفع لا غير، وأما على مستوى المجتمع فإن الاستناد إلى الظالم يؤثر في مسار الأمة الإسلامية ثقافياً، ومحو الإرث الفكري فيؤدي إلى خذلانه وانقهاره وانهياره، وفي الحقيقة أن المستوى الأول –مستوى الفرد – أشد خطورة إذا كان الفرد رمزاً من رموز الأمة، كالعالم فإن صلاحه عامل أساسي في صلاح الأمة وأما فساده فهو بلا شك إفساد لها.

و قد أشار الإمام علي بن الحسين عليه السلام لهذا المعنى في كتاب أرسله إلى محمد بن مسلم الزهري بقوله «آنست وحشة الظالم وسهلت له طريق الغي» إلى غيرها من العبارات وحذره من الوقوع في شراك الظالمين وحبائلهم بما عرضوا له من دنيا ليخدم أهدافهم، حيث أصبح هذا الرجل يؤسس لأفعالهم ولا يتحدث إلا بما فيه رضى للحكام، وإليك نص الكتاب:

«كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك، فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك، وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه، وفقهك فيه من دينه، وعرفك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله، فرضى لك في كل نعمة أنعم بها عليك، وفي كل حجة احتج بها عليك الفرض بما قضى، فما قضى إلا ابتلى شكرك في ذلك، وأبدى فيك فضله عليك، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ .

فانظر أي رجل تكون غدا إذا وقفت بين يدي الله، فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها، وعن حججه عليك كيف قضيتها، ولا تحسبن الله قابلا منك بالتعذير، وراضيا منك بالتقصير، هيهات هيهات! ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه إذ قال تعالى: ﴿تُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ واعلم أن أدنى ما كتمت، وأخف ما احتملت، أن آنست وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دعيت.

فما أخوفني أن تبوء بإثمك غدا مع الخونة، وأن تسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة، إنك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك، ودنوت ممن لم يرد على أحد حقا، ولم ترد باطلا حين أدناك، وأحببت من حاد الله. أو ليس بدعائه إياك حين دعاك، جعلوك قطبا أداروا بك رحا مظالمهم، وجسرا يعبرون عليك إلى

بلاياهم، وسلما إلى ضلالتهم، داعيا إلى غيهم، سالكا سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم، إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم، فما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا، فكيف ما خربوا عليك، فانظر لنفسك، فإنه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول. وانظر كيف شكرك لمن غذاك بنعمه، صغيرا كان أو كبيرا، فما أخوفني أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾

إنك لست في دار مقام، أنت في دار قد آذنت بالرحيل، فما بقاء المرء بعد قرنائه، طوبى لمن كان في الدنيا على وجل، يا بؤس لمن يموت، وتبقى ذنوبه من بعده.

احذر فقد نبئت، وبادر فقد أجلت، إنك تعامل من لا يجهل، وإن الذي يحفظ عليك لا يغفل، تجهز فقد دنا منك سفر بعيد، وداو ذنبك فقد دخله سقم شديد، ولا تحسب إني أردت توبيخك وتعنيفك وتعييرك، لكني أردت أن ينعش الله ما فات من رأيك، ويرد إليك ما عزب من دينك، وذكر قول الله تعالى في كتابه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أغفلت ذكر من مضى من أسنانك وأقرانك، وبقيت بعدهم كقرن أعضب، انظر هل ابتلوا بمثل ما ابتليت، أم هل وقعوا في مثل ما وقعت فيه، أم هل تراهم ذكرت خيراً أهملوه، وعلمت شيئا جهلوه، بل حظيت بما حل من حالك في صدور العامة، وكلفهم بك، إذ صاروا يقتدون برأيك، ويعملون بأمرك، إن أحللت أحلوا، وإن حرمت حرموا، وليس ذلك عندك، ولكن أظهرهم عليك رغبتهم فيما لديك، ذهاب علمائهم، وغلبة الجهل عليك وعليهم، وحب الرئاسة، وطلب الدنيا منك ومنهم، أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرة، وما الناس فيه من البلاء والفتنة، قد ابتليتهم وفتنتهم بالشغل عن مكاسبهم مما رأوا، فتاقت نفوسهم إلى أن يبلغوا من العلم ما بلغت، أو يدركوا به مثل الذي أدركت، فوقعوا منك في بحر لا يدرك عمقه، وفي بلاء لا يقدر قدره، فالله لنا ولك، وهو المستعان.

أما بعد، فاعرض عن كلما فيه أنت، حتى تلحق بالصالحين، الذين دفنوا في أسمالهم، لاصقة بطونهم بظهورهم، ليس بينهم وبين الله حجاب، ولا تفتنهم الدنيا، ولا يفتنون بها، رغبوا فطلبوا، فما لبثوا أن لحقوا، فإذا كانت الدنيا تبلغ من مثلك هذا المبلغ مع كبر سنك، ورسوخ عملك، وحضور أجلك، فكيف يسلم الحدث في سنه؟! الجاهل في علمه، المأفون في رأيه، المدخول في عقله، إنا لله وإنا إليه راجعون، على من

المعول به؟ وعند من المستعتب؟ نشكو إلى الله بثنا وما نرى فيك، ونحتسب عند الله مصيبتنا بك! فانظر كيف شكرك لمن غذاك بنعمه صغيرا وكبيرا، وكيف إعظامك لمن جعلك بدينه في الناس جميلا؟ وكيف صيانتك لكسوة من جعلك بكسوته في الناس ستيرا؟ وكيف قربك أو بعدك ممن أمرك أن تكون منه قريبا ذليلا؟ ما لك لا تنتبه من نعستك! وتستقيل من عثرتك فتقول: والله ما قمت لله مقاماً واحداً أحييت به له دينا، أو أمت له فيه باطلا.

فهذا شكرك لمن استحملك! ما أخوفني أن تكون كمن قال الله في كتابه: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ استحملك كتابه! واستودعك علمه فأضعتها! فنحمد الله الذي عافانا مما ابتلاك به، والسلام،[1] وبعد هذا الكتاب تكون الصورة واضحة في إعانة الظالمين و مساندتهم وما فيها من بلاء وفتنة تخرج صاحبها من زمر الصالحين وتؤدي به إلى الهلاك والتعاسة وتسوق الأمة إلى طريق الإنحراف، فيكون كل من عمل لهم وأعانهم معهم بل حتى الراضي بأفعالهم وهذا المعنى صرح به الإمام الجواد عليه السلام حين قال:العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء،[2] أما أصناف هؤلاء في المجتمع

(١) - بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام - ص ١١٢ - ١١٥

(٢) -كشف الغمة في معرفة الأئمة للأربلي ج٣ص١٤٠

فهم ضعاف الناس من الجهلة والانتهازيين وعبدة الدنيا، ومن الشكر لله ممانعين لأفعالهم تأسياً بالأنبياء والصالحين قال تعالى على لسان موسى الكليم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الظالم ليس شرطاً أن يكون شخصاً، بل قد تكون أمة لأن كل من لم يسترشد بأوامره جل وعلا يكون ظالماً والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]

ولكن يمكن أن يتبادر سؤال حول علاقة المجتمع الإسلامي بغيره وبالأخص أن سيرة النبي صلى الله عليه وآله تشير إلى علاقة بغيره من المجتمعات الكافرة فيكون هنالك نوع من التبعية المسموح بها، وفي معرض الجواب نقول: إن المجتمع الحر المستقل المثالي هو الذي يكتفي ذاتياً، أما علاقته بالمجتمعات الأخرى فيمكن أن تكون على نحو المنافع المتبادلة ولا علاقة للتبعية الفكرية والثقافية أو السياسية أو الاقتصادية لأن المجتمع من هذه الناحية كالفرد حين يكون مأسوراً عند أعدائه لا يستطيع أن يخالف ما يمليه عليه غيره المسيطر عليه، ولم يكن هذا الحال في زمن النبي صلى الله عليه وآله.

(١) - القصص ١٧

(٢) - المائدة ٤٥

الحديث الثامن

التوبة

قال الإمام الجواد عليه السلام: التوبة على أربع دعائم: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وعمل بالجوارح، وعزم أن لا يعود.[١]

إن النفس كالمرآة، إن أردتها صقيلة ناصعة فعليك أن تمنع عنها الأبخرة المسودة لوجهها أولاً ثم لابد من تجليتها ورفع وإزالة ماحصل فيها من صدأ حتى تكون نقية لا شائبة فيها، وكذلك النفس إن أردت أن تطهرها من الذنوب والآثام لا يكفي فيها الاستغفار باللسان فقط حيث ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و المقيم على الذنب و هو مستغفر منه كالمستهزئ»[٢] أو تمتنع من فعل المعاصي فقط بل لابد من العمل الصالح والعزيمة على أن لا تعود إلى فعل المنكرات حتى يتقوم معنى التوبة فالتوبة هي منهج تغيير من السيء إلى الأفضل، وهي الرجوع والإياب من حضور مجالس الشيطان والاستقرار في محضر الرحمن وهي أول درجات الارتقاء والتسامي للمسلم كي يفوز بالثواب العظيم والنعيم المقيم.

(١) - كشف الغمة في معرفة الأئمة ج٣ ص١٤١

(٢) -أصول الكافي ج٢ ص٤٣٥

والتوبة إحدى النعم التي منّ بها الله سبحانه وتعالى على البشر وهي النعمة التي أرخاها لعباده وفتح بابها لهم وقبلها منهم وهي الدلالة الواضحة على الرحمة الواسعة واللطف الواسع لله جل جلاله، وقد أولاها القرآن الكريم اهتماماً واسعاً من حيث معناها وشروطها وقبولها أو عدم قبولها وآثارها ووقت استحقاقها وللتشرف بهذا الذكر العظيم نذكر بعض الآيات التي تشير إلى هذه الأمور قال تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[١]

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[٢] **وقال جل جلاله:** ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٣] **وقال عز وجل:** ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٤]

(١) - النساء ١٧

(٢) - النساء ١٨

(٣) - التوبة ١٠٤

(٤) - غافر ٣

وقال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١)، إلى غيرها من الآيات التي ذكرت التوبة والتائبين ومحبة الله ولطفه بهم وما أعده من الأجر والزلفى، حتى إنه بمنه يجعل النور يسعى بين أيديهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)، هذه هي منزلتهم وشأنهم عند الله.

ولننظر الآن إلى ما أشار إليه الإمام الجواد عليه السلام في حديثه المبارك ولنبدأ بالأمور التي يجب على التائب فعلها بعد الندم على ما صدر منه، واستغفاره الذي يكون باعثاً على العمل الصالح، وهي محو آثار المعاصي فينظر إلى السيئات التي عملها مفصلة – إن استطاع وهي غير ممتنعة – فإنه إن كان يستمع إلى الغناء فليبدلها باستماع القرآن وإن كان يجلس مجالس الفسوق فليبدلها بمجالس الذكر وتعلم الحديث والمسائل الشرعية، وإن كان مشغلاً بدنه فيما مضى في أسفار

(١) - الشورى ٢٥

(٢) - التحريم ٨

المعصية فليسافر إلى بيت الله الحرام، وإن كان يذهب إلى بيوت الفجور فليعتكف في المسجد وإن كان يفتن الناس فليشيع الكلام الحسن إلى غيرها من الأفعال فإنه قد يُعالج الشيء بضده.

ومنها المبادرة إلى التوبة، فالإنسان لا يعلم في أي لحظة يموت، فلا يجوز له التأخير والتسويف، قال لقمان لابنه: «يا بني ! لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة»(١)، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: أحدهما – أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير دينا وطبعا فلا يقبل المحو، والثاني – أن يعالجه المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، ولذلك ورد: أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من هلك إلا بالتسويف،(٢)، وقال الشيخ البهائي قدس سره: لا ريب في وجوب التوبة على الفور، فإن الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن، وكما يجب على شارب السم المبادرة إلى الاستفراغ تلافياً لبدنه المشرف على الهلاك، كذلك يجب على صاحب الذنوب المبادرة إلى تركها والتوبة منها تلافياً لدينه المشرف على الاضمحلال(٣)، والمبادرة مما حكم العقل بها، فكما يحكم العقل بوجوب الإطاعة وحرمة

(١) - بحار الأنوار ج١٣ ص٤٢٦

(٢) - جامع السعادات ج ٣ ص ٤٦

(٣) - رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام ج٤ ص٣٨١

المعصية، فرارا عن الوقوع في الذنب، يحكم بوجوب المبادرة إليها أيضا، فرارا عن بقاء الذنب، لعدم الفرق بين الحدوث والبقاء في نظر العقل، لأن في كل منهما خطرا[1].

وقد ذكر العلماء المسلمون أن التوبة باب مفتوح حين تكون نزعات النفس تبعثه نحو القبيح وعقله وخوفه من الله يصدانه عن هذه النزعات، أما في ساعة المعاينة والموت فهذا الباب يغلق، و نجد مصداق هذا القول من خلال حادثة فرعون التي ذكرها القرآن الكريم فقد نص عليها بقوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ - آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وعليه فإن التوبة قسمين أحدهما مقبول والآخر غير مقبول؛ ولهذا القسم فضلاً عما ذكرنا صنف آخر وهم الذين كفروا بعد إيمانهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ فالتوبة للذين يندمون حقاً على انحرافهم عن طريق الحقّ، أما هؤلاء الذين لن تقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أوّلا، ثمّ كفروا وهو معنى الارتداد، وأصروا على كفرهم، وانحرفوا عن ا الجادة الصحيحة وجحدوا بعد البيان والاستيقان فرفضوا الانصياع لأوامره جل وعلا.

---

(١) - مستمسك العروة - السيد محسن الحكيم - ج ٨ - شرح ص ٣٧٢ - ٣٧٣

وللتوبة آثار كبيرة يدركها الإنسان الآيب الراجع إلى ربه ذكرتها الأحاديث الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام نذكر منها؛

-التوبة ممحاة [منجاة].

- التوبة تستنزل الرحمة.

- إخلاص التوبة يسقط [تسقط] الحوبة.

- التوبة تطهر القلوب و تغسل الذنوب.

- بالتوبة تمحص السيئات.

- بالتوبة تكفر الذنوب.

- ثمرة التوبة استدراك فوارط النفس.

- حسن التوبة يمحو الحوبة.

- لو أن الناس حين عصوا أنابوا و استغفروا لم يعذبوا و لم يهلكوا.

- من استدرك أصلح.

- من استدرك فوارطه أصلح.

- من تاب فقد أناب.

- مع الإنابة تكون المغفرة.

- يسير التوبة و الاستغفار يمحص المعاصي و الإصرار.(١)

وقد ذكرت كتب الأخلاق والسير قصصاً كثيرة عن التائبين وأحوالهم وما خصهم الله سبحانه وتعالى بهم نذكر منها هذه القصة، عن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن عيسى عليه السلام مر هو ورجل من بني إسرائيل من حواريه بلص في قلعة له، فلما رآهما اللص ألقى الله في قلبه التوبة، قال: فقال لنفسه: هذا عيسى بن مريم عليه السلام، روح الله وكلمته وهذا حواريه، ومن أنت يا شقي؟ لص بني إسرائيل ! قطعت الطريق، وأخذت الأموال، وسفكت الدماء ! ثم هبط إليهما تائبا نادما على ما كان منه، فلما لحقهما، قال لنفسه: تريد أن تمشي معهما ؟ لست لذلك بأهل؟ امش خلفهما كما يمشي الخطاء المذنب مثلك! قال: فالتفت إليه الحواري فعرفه، فقال في نفسه: انظر إلى هذا الخبيث الشقي ومشيه وراءنا! قال: فاطلع الله سبحانه وتعالى على ما في قلوبهما من ندامته وتوبته ومن ازدراء الحواري إياه وتفضيله نفسه عليه، قال: فأوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام أن مر الحواري ولص بني إسرائيل أن يسأتنفا العمل جميعا، أما اللص فقد غفرت له ما قد مضى لندامته وتوبته، وأما الحواري فقد حبط عمله لعجبه بنفسه وازدرائه هذا التواب(٢).

(١) - غررالحكم ص ١٩٦-١٩٧

(٢) - كتاب التوابين ص ٨٧ - ٨٨

الحديث التاسع

طلب العلم

قال الإمام الجواد عليه السلام: عليكم بطلب العلم فإن طلبه فريضة والبحث عنه نافلة وهو صلة بين الأخوان ودليل على المروة وتحفة في المجالس وصاحب في السفر وأنس في الغربة.(١)

تسجل مسألة العلم والتعلم المكانة المرموقة في الإسلام والتي حث عليها مراراً وتكراراً وبلغت في الكتاب العزيز من آياته رقماً لا يعادله رقم آخر، ولأهمية هذه المسألة في تكوين الأمة حضارياً ابتدأ الوحي الإلهي بها، فكان أول ما نزل به هو الخطاب الإلهي الأول إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله تعالى: «اقرأ» وهذا الابتداء الوحياني ينطوي على أهمية العلم والتعلم، و بالإنسان الذي اختص وحده بالقابلية لهذه النعم، و بدء القرآن بذلك يزيد في قوة هذا التنويه، فكأنما أريد جعل هذه النعم في مقدمة نعم اللّه التي أنعمها على الإنسان، و في مقدمة ما يجب على الإنسان اكتسابها وشكر الله عليها، وكأن القرآن يشير إلى أن قوة عناصر الدعوة الإسلامية وبعد مداها وخلودها يستمد وجوده من العلم والتعلم، وهو غير منحصر

(١) - كشف الغمة ج٣ ص١٣٩

بفئة معينة بل يشمل نوع الإنسان كافة سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً وهو ما صرّح به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «طلب العلم فريضة على كل مسلم ألا وإن الله يحب بغاة العلم»[1]، وفي الآية أيضاً دعوة صريحة لكل من أراد الانخراط في هذا الدين ودعوة إلى تحصيل العلم بكل وسيلة ممكنة مهما بلغ ثمن الطلب وحسب تعبير الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «اطلبوا العلم ولو بخوض اللجج وشق المهج»[2]، وذلك لأن تكامل الأمة وترقيها يعتمد على أسس لا يمكن تجاوزها وإهمالها وهي التي ذكرها الإمام الجواد عليه السلام في الحديث الذي تشرفنا بنقله والذي يبدأ بقوله عليه السلام: «من تكفل بأيتام آل محمد» فهو اللبنة الأولى في بناء الأمة حيث المشهود في كل الأمم والحضارات وجود علماء يؤسسون إلى بنائها وإحكام مبادئها وعمر الأمم والحضارات يعتمد على قدرة هؤلاء العلماء ومن أي معين استلهموا علمهم، ونحن المسلمون نؤمن أن القادة المؤسسين هم الأنبياء والأوصياء بعدهم يفيضون على الناس مما أعطاهم الله من فضله وما خصهم به، وأما اللبنة الثانية فهم المتعلمون، فإن لم يكن الإنسان من الفئة الأولى، فلا يفرط أن يكون في الفئة الثانية لأنه سيكون من الفئة الثالثة التي صنفها إمامنا الصادق عليه السلام بقوله: «يغدو الناس على ثلاثة أصناف،

(١) - الكافي ج١ ص٣١

(٢) - بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٧٧

عالم ومتعلم وغثاء، فنحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء»[1]، فالعالم هو النبي صلى الله عليه وآله أو الإئمة صلوات الله عليه، والمتعلم هم المسلمون الآخذون عنهم، والغثاء هم من سواهم وفي هذه العبارة استعارة مصرحة، فإنه عليه السلام شبه الفئة الثالثة بالنباتات اليابسة وأوراق الأشجار الذاهبة بها السيول لايستقر لها استقرار ولا يثبت لها حال، وهناك حديث آخر صدر عن إمام الموحدين أمير المؤمنين علي عليه السلام له نفس هذا المعنى ينقله كميل بن زياد يقول فيه: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبان، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال عليه السلام: يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق يا كميل العلم خير من المال، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة والعلم يزكوا على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

يا كميل العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه يا كميل هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء

(١) - الفصول المهمة في أصول الأئمة ج ١ ص٤٦٤

باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة[١]، وفي هذا الحديث مع ما استفدناه من تقسيم أصناف الناس إلى الفئات الثلاث دلالة واضحة على أهمية العلم وحاكميته فهو يحكم الإنسان والإنسان يحرس غيره من الأشياء فتكون النتيجة أن العلم هو الحارس والحاكم الأول للأشياء ومن الأشياء نفس الإنسان التي بين جنبيه. هذه إشارة سريعة لأهمية العلم وبعض آثاره ويبقى الآن أن نستفيد من الآثار الأخرى التي ذكرها الإمام الجواد عليه السلام في فائدة العلم.

ومن الآثار الأخرى للعلم عمارة العلاقة الاجتماعية بين المؤمنين «الصلة بين الإخوان» والسبب في ذلك أن طلب العلوم وبالأخص الدينية تؤدي إلى المعرفة التامة بحقوق المجتمع الإسلامي فيكون العلم باعثاً نحو المداراة والنصيحة وحب الخير وجلبه لهم والإخلاص والتفاني بالدفاع عن إخوانه و برهم وقضاء حوائجهم.

و العلم دليل على الإنسانية «المروءة» فإن إنسانية الإنسان لا تكون بصورته البدنية الحسية وإنما تكون من جانبه الروحي وهذا الجانب يشع و يظهر من خلال أمور منها قراءة القرآن ومتابعته لأن آيات القرآن الكريم ليست للقراءة و التلاوة فقط، بل نزلت لكي يفهم الناس مقاصدها و يدركوا معانيها،

(١) - نهج البلاغة ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦

و ما التلاوة و القراءة إلا مقدمة لتحقيق هذا الهدف المرجو، أي التفكر والتدبر والفهم، ثم الانبعاث والانزجار تبعاً للأوامر الالهية، وحضور المساجد و اعمارها و التفقه في الدين و إليه أشار الإمام الصادق عليه السلام: المروءة مروتان مروة الحضر و مروة السفر فأما مروة الحضر فتلاوة القرآن و حضور المساجد و صحبة أهل الخير و النظر في الفقه و أما مروة السفر فبذل الزاد و المزاح في غير ما يسخط الله و قلة الخلاف على من صحبك و ترك الرواية عليهم إذا أنت فارقتهم[١].

ووصف الإمام الجواد عليه السلام العلم بالتحفة لأن التحفة هي البر واللطف ومجالس العلم والعلماء من أبرز مصاديق البر بالفرد المسلم فإن من البر تعليم المسلم و درء كل الشبهات والأوهام، ولا يخال أحد أن هناك بر ولطف أكثر من أن تجعل الإنسان يتردد إلى مجالس طاعة لله و هو ما أوصى بها جميع القادة الإلهيين، قال لقمان لابنه: «يا بني اختم المجالس على عينيك فاذا رأيت قوما يذكرون الله عزوجل فاجلس معهم فإنك إن تكن عالما يزيدوك علما، وإن كنت جاهلا علموك، ولعل الله أن يظلهم برحمة فيعمك معهم، وإذا رأيت قوما لايذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تكن عالما لاينفعك علمك، وإن تكن جاهلا يزيدوك جهلا، ولعل الله أن يظلهم بعقوبة فيعمك

(١) - تحف العقول ص٣٧٤

معهم»(١)، حيث أن الإنسان ا لجاهل كالطفل يكون مبتور الثقافة، ضعيف الشخصية، ما لم يستلهم مفاهيم حضارته الإسلامية، ويستوعب خطوطها العامة، ويعرف امتدادها وهيمنتها، ويلم بأعلام الإسلام في مجالات المعرفة المتنوعة، و مجالس العلم لا تقل أهمية عن ميادين ا لجهاد، وفتوحات الفاتحين، فالعلم في نظر الإسلام فريضة كما أسلفنا.

وأثر آخر للعلم، فهو رفيق الإنسان في سفريه، لأن السفر سفران سفر الانتقال من مدينة إلى مدينة أو من بلد إلى بلد ويقيناً العلم يكون نِعمَ الصاحب حيث يسهل على الإنسان التعاملات ويقرب إلى الناس بعد همته والسفر الآخر وهو الأهم الارتحال بعد المكوث القليل فالعالم بالمآل يتضح عنده الحال من وعورة السفر وعظيم المورد يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أيها الناس إنكم في زمان هدنة، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبلين كل جديد، ويقربن كل بعيد، ويأتين بكل موعد ووعيد، فأعدوا ا لجهاز لبعد المفاز»(٢).

وأيضاً من آثاره الأنس للإنسان فلا يوجد أفضل من العلم في دفع الوحشة يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم أفضل الأنيسين»(٣).

(١) - الكافي ج١ ص٣٩

(٢) - النوادر ص١٤٣

(٣) - ميزان الحكمة ج٣ ص٢٠٦٣

وقد تحدثت الروايات عما للمتعلم من عظيم الثواب ورفعة المنزلة نذكر شيئاً منها:

١- قال الإمام السجاد عليه السلام: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج، إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال عليه السلام إن أمقت عبيدي إلي ا لجاهل المستخف بحق أهل العلم التارك للاقتداء بهم، وإن أحب عبيدي إلي التقي الطالب للثواب ا لجزيل الملازم للعلماء التابع للحكماء القابل عن الحلماء»(١).

٢- عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أف لكل مسلم لا يجعل في كل جمعة يوما يتفقه فيه أمر دينه ويسأل عن دينه»(٢).

٣ - عن أبي البختري، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء وذاك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظا وافراً، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل ا لجاهلين»(٣).

(١) - الكافي ج١ ص٣٥

(٢) - الفصول المهمة في أصول الأئمة ج١ ص٤٦١

(٣) - وسائل الشيعة ج١٨ ص٥٣

٤ - عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الذي يعلم العلم منكم، له مثل أجر المتعلم وله الفضل عليه فتعلموا العلم من حملة العلم وعلموه إخوانكم كما علمكموه العلماء»[١].

٥ - عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سلك طريقا يطلب فيه علماً سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به وإنه ليستغفر من في السماوات ومن في الأرض حتى الحوت في البحر وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر وإن العلماء لورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم»[٢].

٦ - عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «من علم خيراً فله مثل أجر من عمل به، قلت: فإن علمه غيره يجري له؟ قال: إن علمه الناس كلهم جرى له، قلت: فإن مات؟ قال: وإن مات»[٣].

٧ - عن حفص بن غياث قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «من تعلم العلم وعمل به وعلم لله، دعي في ملكوت السماوات عظيما، فقيل: تعلم لله وعمل لله وعلم لله»[٤].

(١) - الكافي ج١ ص٣٥

(٢) - بصائر الدرجات ص٢٣

(٣) - وسائل الشيعة ج١٦ ص١٧٣

(٤) - الكافي ج١ ص٣٥

الحديث العاشر

عمل الأبرار

قال الإمام الجواد عليه السلام: ثلاث من عمل الأبرار؛ إقامة الفرائض، و اجتناب المحارم، واحتراس من الغفلة[١].

هناك فئة من الناس تمتلكهم نزعة إصلاحية تبعثهم إلى تغيير الفساد ومنع تجدده في المجتمع وتبديله إلى صلاح سواء كان هذا الإصلاح على مستوى العقيدة أو على مستوى السلوك والفعل، وهذه النزعة الإصلاحية هي العهد الذي أقروه على أنفسهم لله سبحانه وتعالى، وهذه الفئة من الناس هم المؤمنون حقاً، و من أراد التأسي بهؤلاء فعليه التحرك في الحياة حركة التزام بينه وبين خالقه ومدبره، وبينه وبين الموجودات الأخرى ويتعهد بأن ينطلق تبعا لأوامر مولاه في كفالة المجتمع و يسخر كل طاقاته لأجل خير المجتمع وصلاحه، ويخضع كل قواه وإمكاناته لرعاية إلتزامه بإيفاء حق المسؤلية المكلف بها فيحافظ من خلال هذا الالتزام بالارتباط الصادق مع ربه بأن يتكفل إبلاغ الناس وإرشادهم لما فيه خيرهم وا لمحافظة على منهج التغيير الإيجابي، حيث أن المسؤلية الكبرى على

(١) - كشف الغمة في معرفة الأئمة ج٢ ص ١٤١

الإنسان إظهار العبودية المطلقة، وإظهارها يكون بالانقياد التام والطاعة في كل الأوامر والنواهي والصدق في كل المواطن، والصلاح في كل الشؤون، ومن جانب آخر على الإنسان المسلم المتأسي أن لا يعيش الذاتية والانغلاق على نفسه أو اللامبالاة بما يحيط به، أو أن يُحجم طاقاته ليستفيد هو منها فقط وهو بذلك يبتعد عن الإحساس بالهدف الأسمى للحياة، ويبتعد عن معرفة الحقيقة في أن الطاقات الموهبة له ليس أمراً ذاتياً غير مسؤول عنه، و يعسر عليه فهم أن هذه الطاقات والإمكانات أمانة الله عنده لا بد من أن يوجهها بطريق الخير والصلاح اقتضاء لحق المولى عليه، وهو بهذه الحال سيكون سائراً في طريق بعيد عن الأهداف التي خُلِقَ من أجلها، وإن لم يعلم.

إذن يوجد خطان في الحياة؛ خط إيجابي وهو خط الإيمان والبر وهو خط المصلحين، وخط سلبي خط الكفر والفجور وهو خط المفسدين، فمن أراد الانخراط في خط المصلحين أصحاب النفوس الطاهرة وأصحاب الاعتقاد الصحيح، الصادقون في طاعة الله جل وعلا، المتوسعون في عمل الخير، المؤثرون على أنفسهم، الباذلون في الله، أصحاب الدرجات العليا في الآخرة فضلاً عن الأولى ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [1]،

(١) - المطففين ١٨

فمن أراد كل ذلك عليه أن يبتدأ بما أوصى به الإمام ا لجواد عليه السلام، فإن للفرائض أسباب لإيجابها وعلة أوجبتها حكمة الله سبحانه و تعالى فالصلاة والصيام والزكاة والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وباقي الفرائض لها علة اقتضت ثبوتها في ذمة المكلفين، ولكن هل التكاليف هي أفعال ظاهرية لا روح فيها أم هي أفعال ذات أبعاد لها تأثير في المنهج العام والخاص للأفراد وعلاقتهم ببعض؟ سؤال أجاب عليه القرآن في سورة الأنفال في الآية الرابعة والعشرين حيث يخبرنا جل وعلا أن الإسلام فكراً و مضامين هو إحياء للبشرية من كل الشوائب والتعلقات والأنانية وهو حياة الخير والتضامن والتكافل قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [1] ولنذكر بعض علل الفرائض وتأثيرها؛

١- الصلاة: إن قيمة الصلاة هي توجه الإنسان بكله إلى ربه لا ظاهره فقط لا جسداً فقط بل يجب أن يتجه ظاهراً وباطناً بروحه وجسمه، فالصلاة تجسد فكرة الإسلام الأساسية ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [2] حيث أن الإنسان ذو بعدين يريد منهما الإسلام الانشغال به فلا يكفي الوقوف والانحناء والهوي على الأرض من ا لجسم إذا لم تكن الروح منشغلة بهذه الأفعال وما يراد منها.

(١) - الأنفال ٢٤

(٢) - العنكبوت ٤٥

- إن الصلاة رفيق مرشد للإنسان يدله ويذكره على النعم الموفورة عنده وما سيأتيه من نعم هي كرم و مَن و إحسان من خالقه، وينبهه للشكر لأن النعم في بقائها و زيادتها تحتاج إلى الشكر، وشكر المنعم له طرق كثيرة؛ منها شكر اللسان و شكر القلب و شكر ا لجوارح، ولكل شكر أصول، فشكر اللسان هو الحمد والثناء والتكبير والتهليل والصلاة على النبي وآله ﷺ وما إلى ذلك، وشكر القلب هي بانشغاله بالأمور الحقة وعدم الغفلة والانجرار وراء الأهواء والآراء والشهوات وما إلى ذلك، وشكر ا لجوارح تكون بإعانة ا لمحتاجين و تلبية رغبة الطالبين.

- والصلاة هي السد المنيع عن الذنوب الكبيرة الخفية «الفحشاء»، وهي السد عن الذنوب الكبيرة الظاهرة «المنكر» وهي موجة و طوفان يغرق كل القوى الشهوانية و كل القوى الغضبية.

- والصلاة هي انتقال إلى عالم النور و السرور ومنحة العزة الموهوبة للإنسان وهي وسيلة التقرب وهي القربان الذي تتوقف عليه كل القرابين.

هذه صورة أولية للصلاة و هناك الكثير من الأحاديث في علة الصلاة وآثارها نذكر منها:

أ_ عن الإمام الرضا عليه السلام: «علة الصلاة أنها إقرار بالربوبية لله عز وجل وخلع الأنداد وقيام بين يدي ا لجبار جل جلاله بالذل والمسكنة والخضوع والاعتراف والطلب للإقالة من سالف الذنوب ووضع الوجه على الأرض كل يوم خمس مرات اعظاما لله عز وجل وأن يكون ذاكرا غير ناس ولا بطر ويكون ذكره لربه وقيامه بين يديه زاجرا له عن المعاصي ومانعا له من أنواع الفساد»[1].

ب - عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن علة الصلاة فإن فيها مشغلة للناس عن حوائجهم ومتعبة لهم في أبدانهم، قال عليه السلام: «فيها علل وذلك أن الناس لو تركوا بغير تنبيه ولا تذكر للنبي ﷺ بأكثر من الخبر الأول وبقاء الكتاب في أيديهم فقط لكانوا على ما كان عليه الأولون، فإنهم قد كانوا اتخذوا ديناً ووضعوا كتباً ودعوا أناساً إلى ما هم عليه وقتلوهم على ذلك، فدرس أمرهم وذهب حين ذهبوا وأراد الله تبارك وتعالى أن لا ينسيهم أمر محمد ﷺ ففرض عليهم الصلاة يذكرونه في كل يوم خمس مرات ينادون باسمه وتعبدوا بالصلاة وذكر الله لكيلا يغفلوا عنه وينسوه فيندرس ذكره»[2].

ج- عن عبيد بن زرارة عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام

(١) - علل الشرائع ج ٢ص ٣١٧
(٢) -علل الشرائع ج ٢ ص ٣١٧

قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد والغشاء وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء»[1].

٢- الزكاة هي فعل وفائي لله سبحانه وتعالى في ذمة الأغنياء لأخوانهم الفقراء وهي الشكر على الاستخلاف الإلهي للإنسان الثري وهي أداة لكسر بعض القيود التي تأسر الفرد المسلم وتجره نحو عبودية مزيفة باطلة وهي معتقة العبد من حبائل الحرص والشح والبخل والأثرة.

والأحاديث المروية جاءت تؤكد هذا المعنى، كتب الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام، إلى محمد بن سنان فيما كتب إليه من جواب مسائله: «إن علة الزكاة من أجل قوت الفقراء، وتحصين أموال الأغنياء، لأن الله عز وجل كلف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى، كما قد قال تبارك وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ في أموالكم إخراج الزكاة و في أنفسكم توطين الأنفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عز وجل، والطمع في الزيادة مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف، والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المواساة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين

(١) - الكافي ج ٣ ص ٢٦٦

وموعظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم، وما لهم من الحث في ذلك على الشكر لله تبارك وتعالى لما خولهم وأعطاهم، والدعاء والتضرع والخوف من أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف»[1].

٣- الصوم: للصوم آثار ذكرها المفسرون عند قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] هي أن الصوم فعل امتناعي يؤدي إلى بروز التقوى في أفعال الإنسان، وهو تمرين للإنسان على ضبط النفس وعدم الانجرار وراء الشهوات المحرمة، والصوم سلوك موجه لأفعال الإنسان بالاعتدال وعدم الإفراط والانغماس في الملذات التي بدورها توجب ضعف الإنسان وسلب قدرته في مواجهة التحديات التي تعصف بالإنسان، وبعبارة أخرى إن الصوم عبادة ترمي إلى تزكية النفس و تهذيبها من الارتكاس في الشهوانية، والاعتدال بأخذ المقدار المسموح به المأمور به شرعاً بلا إفراط، وهو رياضة روحية و أداة تربوية للإرادة النفسية، والصوم منبه للغني ليضارع الفقير في جوعه حتى يرحمه كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله هشام بن الحكم فقال عليه السلام: «إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير

(١) - من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٨

(٢) - سورة البقرة ١٨٣

وذلـك أن الغـني لم يكن ليجد مس ا لجـوع فيرحم الفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه فأراد الله عز وجل أن يسوي بين خلقـه وأن يذيق الغنى مـس ا لجوع والألم ليرق على الضعيف ويرحـم ا لجائـع»[1]، و يخبرنـا الإمـام عليه السلام بآثار أخـرى غير ما ذكرنا في قـول الله عز وجـل:﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ قال: الصبر الصيـام، وقـال: إذا نزلت بالرجل النازلة الشـديدة فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني الصيام».[2]

والمتتبع لعلل الأحكام يجد الكثير من الآيات والأحاديث التي تبين أسـباب التكاليف، و نحن في هذا المختصر أشرنا إلى النزر القليل بل قد لا يكون ذا شأن ماذكرناه.

و العمـل الثاني مـن أعمال الأبرار هو اجتناب ا لمحارم.. حيث أنـه لا ينفـع إتعاب النفس في فهـم مضامين الطاعات و تحمل مشـاق التكاليف مع عدم ترك ا لمحرمـات والاجتناب عنها، فلا بـد مـن حبـس النفس على مـا فرضه الشـرع فـإن الصبر فى نوعـين: الصبر على ا لمحن والشـدائد، والأهـم من ذلك الصبر علـى تجنـب ا لمحرمـات «الصـبر صبران: صـبر على مـا تكره، وصـبر عما تحـب»[3]، فإن من الواجب على الفرد المسـلم أن لا

(١) - من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٧٣

(٢) - غنائم الأيام ج ٥ ص ٢٧

(٣) - نهج البلاغة ج٤ ص١٤

يتأثر ولا يهتز عند عروض ا لمحرمات، ولا يسلم للنفس القياد، حيث أن خضوع الإنسان لرغباته و نهمه لإشباع حاجاته يؤدي إلى ضعف و ذوبان شخصيته فيتردى عن مستوى ما وضعه الله جل وعلا وينقلب حاله من سـيد إلى مسـود، بل لابد أن تكون الواجبـات أدوات تطهيريـة لتصفية ومنـع النفـس، فإن الصوم مثـلا ليـس مجرد الكـف عن الشـراب والطعـام وإنمـا الصوم الحقيقـي صيـام فكر الإنسـان عـن التفكير بمـا لا يرضي الله قـال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «صيام القلب عن الفكر في الآثام، أفضل من صيام البطن عن الطعام»[1].

وصيـام الشـعور عن الأنانيـة والذاتيـة عن الإمـام علي عليه السلام: «صـوم القلب خير من صيام اللسـان، وصيام اللسـان خير من صيام البطـن»[2].

وصيـام ا لجوارح ردع ا لجوارح عـن التعدي على حقوق الناس و عـن كل معصية قـال الإمام علي عليه السلام:«صوم النفس إمسـاك الحواس الخمس عن سائر المآثم، وخلو القلب من جميع أسباب الشر»[3]، فكما يكف لسانه و فمه عن تناول الأطعمة والأشربة عليـه أن يكف لسـانه عـن الغيبـة و النميمة والسـباب جاء في

(١) - موسوعة أحاديث أهل البيت ج٨ ص٥١٩

(٢) - عيون المواعظ والحكم ص٣٠٥

(٣) - نفس المصدر

الروايات أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله سمع امرأة تسب جاريتها وهي صائمة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بطعام و قال لها: كلي، فقالت إني صائمة، فقال لها صلى الله عليه وآله: «كيف تكونين صائمة وقد سَبَبْتِ جاريتك؟ إن الصوم ليس من الطعام والشراب وإنما جعل الله ذلك حجاباً عن سواهما من الفواحش».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وفرجك ولسانك، وتغض بصرك عما لا يحل النظر إليه، والسمع عما لا يحل استماعه إليه، واللسان من الكذب والفحش»[1].

وقد ذكر علماؤنا الأعلام في سنن الصيام آداباً قال الشيخ المفيد: ومن سنن الصيام غض الطرف عن محارم الله تعالى، وشغل اللسان بتلاوة القرآن، وتمجيد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله، واجتناب سماع اللهو وجميع المقال الذي لا يرضاه الله تعالى، وهجر المجالس التي يصنع فيها ما يسخط الله عز وجل، وترك الحركة في غير طاعة الله عز وجل، والإكثار من أفعال الخير التي يرجى بها ثواب الله تعالى[2].

وعلى ما قرأنا من كلام المعصومين وآراء العلماء نرى بوضوح

(١) - الهداية - الشيخ الصدوق - ص ١٨٩

(٢) - المقنعة ص ٣٠٩ – ٣١٠.

أن الوظيفة الطبيعية للإنسان المسلم الاجتناب عن المعاصي، وكل ما ذكر سلفاً عن الواجبات نجد فيه جانباً مهماً في تشريعه و آدابه و هو وجوب تخلي الفرد المسلم عن الرذائل بكل مستوياتها وأما في حالة الازدواجية في فعل الواجب وفعل المحرم فإن الواجبات لم تؤد وظيفتها الطبيعية.

ومن جانب آخر نجد في الآيات والروايات ما يؤكد أن المعاصي لها أثر سلبي على الفرد وهذا المعنى ليس بخاف على أحد وإنما نذكره ونعيده للموعظة والانتهاج:

١- عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الذنوب كلها شديدة، وأشدها ما نبت عليه اللحم والدم لأنه إما مرحوم، وإما معذب، وا لجنة لا يدخلها إلاّ طيب»[1].

٢- قال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[2].

٣- وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «من همّ بالسيئة فلا يعملها، فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب تبارك وتعالى فيقول: وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً»[3].

(١) - وسائل الشيعة ج١٥ ص٢٩٩

(٢) - الكافي ج٢ ص٢٧١

(٣) - وسائل الشيعة ج١٥ ص٣٠٣

٤- قال العباس بن هلال الشامي مولى لأبي الحسن موسى الكاظم: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[1].

قال الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً مفضل بن عمر: «يا مفضّل إياك والذنوب وحذّرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إن أحدكم لتصيبه المعرة من السلطان وما ذلك إلا بذنوبه، وإنه ليصيبه السقم وما ذلك إلا بذنوبه، وإنه ليحبس عنه الرزق وما هو إلا بذنوبه، وإنه ليشدد عليه عند الموت وما ذاك إلا بذنوبه حتى يقول من حضره: لقد غم بالموت، فلما رأى ما قد دخلني، قال: أتدري لم ذاك؟ قلت: لا، قال: ذاك والله إنكم لا تؤاخذون بها في الآخرة، وعجلت لكم في الدنيا»[2].

وأخيراً نذكر قصة رجل خاف الله وما كان جزاؤه في الدنيا قبل الآخرة، عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «إن رجلا ركب البحر بأهله فكسر بهم، فلم ينجُ ممن كان في السفينة إلا امرأة الرجل، فإنها نجت على لوح من ألواح السفينة حتى ألجئت إلى جزيرة من جزائر البحر، وكان في تلك الجزيرة رجل يقطع الطريق، و لم يدع لله حرمة إلا انتهكها،

(١)- الكافي ج٢ ص٢٧٥

(٢) - وسائل الشيعة ج١٥ ص٣٠٥

فلم يعلم إلا و امرأة قائمة على رأسه، فرفع رأسه إليها، فقال: إنسية أم جنية؟ فقالت: إنسية، فلم يكلمها [كلمة] حتى جلس منها مجلس الرجل من أهله، فلما أن هم بها اضطربت، فقال [لها]: مالك تضطربين؟ فقالت: أفرق من هذا، و أومأت بيدها إلى السماء، قال: فصنعت من هذا شيئا؟ قالت: لا و عزته، قال: فأنت تفرقين [منه] هذا الفرق، و لم تصنعي من هذا شيئا! و إنما أستكرهك استكراها، فأنا و الله أولى بهذا الفرق و الخوف و أحق منك، قال: فقام، ولم يحدث شيئا، و رجع إلى أهله، و ليست له همة إلا التوبة و المراجعة.

فبينا هو يمشي، إذ جاء راهب يمشي في الطريق، فحميت عليهما الشمس، فقال الراهب للشاب: ادع الله يظلنا بغمامة فقد حميت علينا الشمس، فقال الشاب: ما [أعلم أن] لي عند ربي حسنة فأتجاسر على أن أسأله شيئا، قال: فأدعو أنا و تؤمّن أنت؟ قال: نعم، فأقبل الراهب يدعو والشاب يؤمّن، فما كان بأسرع من أن أظلتهما غمامة، فمشيا تحتها مليا من النهار، ثم تفرقت الجادة جادتين، فأخذ الشاب في واحدة، وأخذ الراهب في واحدة، فإذا السحابة مع الشاب، فقال الراهب: أنت خير مني، لك استجيب و لم يستجب لي، فخبرني ما قصتك؟ فخبره بخبر المرأة، فقال: غفر الله لك ما مضى حيث دخلك

الخوف، فانظر ما تكون فيما تستقبل»[1].

و الاحتراس من الغفلة.. هو الأمر الثالث من أعمال الأبرار فالعجب من بعض الناس تركهم التأمل والتدبر بالوصول إلى الحقيقة فإن ما عندهم من عقل به يُهتدى إلى طرق كثيرة لمعرفة مآل الأشياء فللعقل قدرة تجريد الأشياء والنظر نظرة تجريدية فلسفية وله القدرة على التفكر في هذا الخلق وهذا الكون البديع وما فيه من نظام وتفصيلات، وله قدرة في النظر إلى ذاته ومسيرة حياته فهو من تراب ثم كان علقة فمضغة فعظام فلحم فإنسان سوي تتحرك الروح فيه وينفتح إحساسه على الدنيا وما فيها، وله القدرة على طرق أخرى حتى قيل الطرق إلى الله بعدد الخلائق وكل هذه الطرق توصله إلى نتيجة مفادها أن البداية منه جل وعلا والخير منه و الحياة منه وكل كمال منه والنهاية إليه، وإليه الأمر من قبل و من بعد، وما يكون عند الإنسان و ما يحصله ليس بقدرة ذاتية واستطاعة نفسية، وهذا حال الأبرار في منهجية تفكيرهم فهم متيقنون أن ما جرى على أيديهم من هداية لغيرهم أو أعانة لإخوانهم فهو من فضل الله عليهم يعلمون أن الخير منه وإليه ليس لهم منه شيء وإنما يستمدونه دائماً من بارئهم وربهم، وقد حكى لنا الكتاب العزيز قصة رجلين أحدهما مؤمن يملؤه

(١) - الكافي ج٢ ص٦٩

إيمان بالله والإحساس بفضله في كل حين وفي كل شيء فيرى كل مظاهر الوجود وخيريته منه جل وعلا، وأما الرجل الغافل فهو يدعي الكرامة النفسية والاستحقاق الذاتي من نفسه، فتراه وهو يكلم المؤمن يكون حواره معه من موقع الإحساس بالفوقية والامتياز بسبب توهمه أن ما يملكه من كثرة الأتباع والمال تحصل لديه من ذاته وبقدرته على ذلك كما يقول البارىء عزوجل:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۞ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا

أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ❖ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ❖ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ❖ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ❖ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ❖ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ❖ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (١)

وهذه هي الغفلة المبنية على الخيالات التي لا تستند على أساس واقعي ولا تلتقي بالإيمان بالله من قريب أو بعيد، هذه هي الغفلة التي قد تصل إلى إنكار كل شيء.

اللّهُمّ نعوذُ بِكَ مِن شرّها، اللّهُمّ لا تُنسِنا ذكرَكَ

(١) - الكهف من ٣٢-٤٤

الفهرس

المقدمة.....٣

الحديث الأول: أثر اتباع الهوى.....٤

الحديث الثاني: ميزان الصحبة.....١٠

الحديث الثالث: قضاء الله.....١٣

الحديث الرابع: المبدئية.....٢٠

الحديث الخامس: أمين الخونة.....٢٧

الحديث السادس: كفالة الأيتام.....٣١

الحديث السابع: تزيين القبيح.....٤٠

الحديث الثامن: التوبة.....٤٨

الحديث التاسع: طلب العلم.....٥٥

الحديث العاشر: عمل الأبرار.....٦٣